اللحظات السعيدة في حياة «طه»..

عرفة محمد أحمد ـ مصر

فى فناء المدرسة تراه دائمًا يهرول خلف التلاميذ الصغار، خطواته تكاد تُحدث زلزالًا يهدم الحوائط القديمة، ترتفع خلفه سحابة من التراب تستقر فى النهاية على ملابسه ووجهه.

«طه».. كان طويلًا كمسلةٍ فرعونيةٍ تتوسط معبدًا دينيًا، يبدو جسمه ممتلئًا تحت ملابسه القديمة البالية، يسير بين طرقات فصول المدرسة متهاديًا كالمحمل، ينتظر انتهاء أول «٣» حصص فى اليوم الدراسى، يهرول مسرعًا ناحية «جرس» المدرسة الكبير، يقرعه بشدة، حتى أن صوته العالى يُغضب «الناظر» فيخرج من مكتبه ويوبخه بشدةٍ، تنفتح الفصول، ينطلق التلاميذ منها كالسهام، وتعلو أصواتهم فتحدث فوضى شديدةً.

فى «الفُسحة» تراه جالسًا بجانب «الشيخ أحمد» بائع السندوتشات للتلاميذ الصغار، يضع أمامه «مشنّة» مليئة بالسندوتشات وقطع البطاطا، يحبها الصغار، يشترون منه ولكنهم يعطونها ثمنها فى اليوم الثاني.

يكره «طه» السير في شوارع القرية، كان الأطفال الصغار يهرولون وراءه، يقذفونه بقطع الحجارة، تصرخ سيدة واقفة على «عتبة» بيتها لتمنعهم من قذفه بالحجارة، بينما تنطلق ضحكات أخريات: «العيال كبرت».

فى الفسحة المدرسية كان «طه» يلعب مع الصغار طوال الوقت، يقفزون فوق ظهره مثل «القرود»، بينما يُمسك أحدهم ويلقى به لأعلى ثم ينتظره من رحلة العودة من السماء.

يقتطع بعض الصغار الأطعمة من وجباتهم، يجمعونها ويعطونها له، يلتهمها وكأنها آخر زادٍ له، عندما يحضر بعض أولياء الأمور إلى المدرسة، كانوا يغضبون لرؤية «طه» وهو يلهو بين تلاميذهم الصغار، لكن ناظر المدرسة كان يُطمئنهم ويُخبرهم أنّ الصغار يحبونه، يستمع أولياء الأمور لكلام «الناظر» ثم ينصرفون وفي قلوبهم شك ناحية طه.

كان «طه» يلعب مع الصغار عندما رأى معلمةً جديدةً تدلف إلى فناء المدرسة، رفع رأسه وهب واقفًا وانطلق نحوها مثل السهم، عندما رأته المعلمة قادمًا نحوها ارتدت إلى الوراء، مدّ يده ليحمل عنها حقيبةً كانت تمسك بها، رفضت، يبدو أن ملابسه وهيئته لم تُرح الوافدة الجديدة، انطلقت مسرعةً حتى وصلت إلى مكتب الناظر.

مع الوقت تعودت المعلمة على رؤية «طه» يلعب مع تلاميذ المدرسة الصغار في الفناء، عندما يراها قادمةً، يهرول نحوها ويحمل الحقيبة عنها، ويظل ممسكًا بها حتى تصل المعلمة إلى حجرة المُدرسات.

كانت تلك المعلمة التي يبدو أنّها حديثة التخرج تشعر أنّ «طه» يراقبها طوال الوقت، أهمل اللعب مع التلاميذ الصغار فى «حوش المدرسة» وأصبح يستقر قريبًا من الأماكن التى تتواجد بها؛ غُرفة المدرسات، الفصل الدراسى، الحوش، لكنها انزعجت كثيرًا عندما رأته قريبًا من «حمام المدرسات»، انفّجرت فى وجهه بكلماتٍ قاسيةٍ معلنةً أنّها ستُخبر «الناظر» على أفعاله: أنت وصلت بك الجرأة تأتى إلى حمام المدرسات لتراقبني؟!

لم تجد رد فعلٍ من «طه»؛ فقط رأت دموعه تتدفق من عينيه وهو يبتعد عنها، تسمّرت فى مكانها، أدار ظهره ونظر لها نظرةً طويلةً، حاولت أن تستفزه لينطق بكلماتٍ حتى لو أغضبتها لكنها فشلت؛ فقد اختفى «طه» من أمامها فى «لمح البصر».

فى اليوم التالي، لم ترَه فى المدرسة، سألت عنه، فقيل إنّ أحدًا لم يُشاهده، حاولت البحث عن أحد يعرفه فى القرية، كانت تشعر أنها ارتكبت ذنبًا بعد توبيخها الزائد له، كانت تقول في قرارة نفسها: ربما كان وجوده صدفةً بالقرب من حمام المدرسات؟

لم تنزعج من نظرات أهل القرية وهى تسأل عن «طه»، لا أحد يعرفها فى هذه القرية البعيدة عن المدينة، تتحدث لهجةً غريبةً عنهم، وترتدي ملابس ليست مثل ملابسهم، لكنها ذهبت لسكنها آخر اليوم دون أن تجد «طه».

لم تنم ليلتها، وانتظرت حتى الصباح، ذهبت إلى المدرسة وأخبرت «الناظر» أنّها أغضبت «طه» لتصرف صدر منه وفهمته خطأ، قالت له إنها تشعر بذنبٍ أنّه ابتعد عن صغاره من التلاميذ الذين يحبهم ويقضى يومهم معهم داخل المدرسة، أخبرها أنّه سيرسل «الفراش» للبحث عنه ويجده ويُعيده.

لم تكن تعرف سر الطُمأنينة التى شعرت بها بعد كلام «الناظر»، بالفعل رأت «طه» مرةً ثانيةً فى المدرسة، تهلل وجهها وهى ترى التلاميذ الصغار يتحلّقون حوله وكأنه كان غائبًا عنهم من زمنٍ، انصرفت لعملها دون كلماتٍ لكنّها حاولت بعد ذلك «الهروب» من نظرات «طه» كلما رأته، لا تعرف لماذا يتتبّعها بنظراته أنّى رأها؟ فكّرت يومًا أن تُخبر «الناظر» بضيقها من «طه»، لكن شعرت أنها ستظلمه، ردّ فعل «الناظر» سيكون عاصفًا وأقلها سيطرده من المدرسة ويحرمها من اللعب مع صغاره، فكرت فى الأمر وقررت أن تُحدثه مباشرةً.

- يا طه أنا أشعر بالضيق من اهتمامك الزائد بى.
- لا أريد شيئًا.. وجودك والصغار فى المدرسة أصبحا كل حياتى.
- طيب نتفق أنك تتوقف عن تتبعي في كل مكان فى المدرسة.
- إذا كان هذا يُغضبك.. سأتوقف
- تمام.. اتفقنا

أول الشهر الجديد، دخلت المعلمة حاملة «كيسًا» أسود بداخله قطعة قماش، نادت على «طه»، اصطحبته إلى «ترزى» القرية، صنع له جلبابًا جديدًا.

بعد مرور يومين، دخل «طه» المدرسة بحُلته الجديدة، فرح تلاميذ المدرسة وكأنهم أول مرةٍ يرونه فيها، ظل طوال اليوم يلعب مع صغاره بينما تراقبه المعلمة الصغيرة من شباك فصلٍ قريبٍ من «الحوش» وهى ترتسم على وجهها ابتسامة عريضة.. ولا تعرف سر الفرحة المجهولة التي بدأت تسري فى داخلها.